جون ديوي، والمنهج البرغماتي

د. رافد قاسم هاشم

جامعة بابل/ كلية الفنون الجميلة

Gohen deweey, and the pragmatism method

Dr. Rafid kassim haghim

University of Babylon\ college of Art

Finie.rafid.hassim@uobabylon.edu.iq

Abstract

John Dewey, the most prominent philosophers of the present era of America, but also the world, is the philosopher of America, expressing her mental orientation and a global philosopher or, as the professor(Arwin Addman), one of the makers of American heritage.

Dewey is the greatest philosopher and producer of American philosophy, and his field of activity as an object and teacher(for more than seventy years). His ideas and influences have added much to American life. The application of Dewey's philosophy to the problems of life, man and the world was naturalistic and instrumental) In philosophy, he was a very strong defender.

Keywords: John Dewey, Curriculum, Pragmatic.

المقدمة

جون ديوي, أبرز فلاسفة العصر الحاضر لافي أمريكا فحسب بل في العالم أجمع, فهو فيلسوف أمريكا المعبر عن أتجاهها العقلي وفيلسوف عالمي وأو كما يسميه الاستاذ(أروين أدمان) أحد صناع التراث الامريكي.

لذلك يعتبر ديوي أعظم فيلسوف منتج ومؤثر أنتجته الفلسفة الامريكية, ومجال نشاطه ككائن ومدرس(لآكثر من سبعين عاماً), وقد أضافت أفكاره وتأثيراته الكثير على الحياة الامريكية, وهكذا كان تطبيق فلسفة ديوي على مشكلات الحياة والانسان والعالم بين الشعور الطبيعي(Naturalistic) والنفعي(Instrumentual) في الفلسفة, فقد كان مدافعاً قوياً جداً.

لقد كان أهتمامه الاساسي بعلاقة الانسان بالعالم الطبيعي وقد بذل جهداً كبيراً في ذلك, ولذلك فمن الواجب أن ننظر أليه على أنه محاولة ليبين أن كل خبرات الانسان وأفعاله يزيد معناها عندما يفهم المعنى الطبيعي والدلائل ومعنى النفعية لحل مشكلات الانسان وخصوبة حياته.

وجون ديوي كان مستمراً في محاولة ألغاء التناقض بين النظرية والتطبيق, وقد قدم أكثر من دليل على النظرية والتطبيق كونهما لم يعودا منفصلان.

كما أنه حاول أزاله الفصل بين كيف نفكر في الاشياء وكيف نعمل بها, وقد أستخدم هذا التصور في المشكلات التربوية, وأنه محتاج الى نظرية موحدة أو مندمجة وقد جرب ذلك على الكثير من الحالات الاختيارية وعلى نظرياته.

الكلمات المفتاحية: جون ديوي, منهج، برغماتي.

(1) عوامل تشكيل الفكر عند ديوي:

لم يكن ديوي براجماتياً منذ أول نشأته بل تأثر في أول مراحله بالفلسفة الهيجلية ثم أخذت ظروفه تتغير حتى أتخذ لنفسه طريقة برجماتية بقية حياته, والاعوام التي شكلته تشكيلآ حالماً هي الاعوام العشرة الممتدة من عام(1894 . 1904).[1]

ولذلك يقال أن المؤثرات على ديوي كانت ثلاثة هي:(1) البرجماتية الامريكية(2) والتجربة الانجليزية وبخاصة مذهب التطور والمثالية الالمانية, ثم نخلص من بعض هذه المؤثرات بعد مراجعة للنفس.[1]

1 زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد) الناشر: دار الشروق, بيروت, لبنان, ط 3, 1987, ص 160.

لقد قيل سابقاً(أن الانسان كالبيئة التي يعيش فيها) فأن هذا ينطبق على ديوي, فلقد كان أبرز مثال على ذلك, فقد نشأ في أقليم معين كانت لها أثرها عليه, ثم هنالك التربية التي تلقاها كانت لها أثرها في حداثته, وكذلك الاساتذة الذين تأثر بهم والذين

تتلمذ على أيديهم, والامة التي كان فردأ فيها والاتجاهات العلمية والنزعات الفلسفية والتصنيع ونزول المرأة الى العمل, والتغيير في الاخلاق والفن والدين والتربية كل هذه العوامل كان لها أثرها العميق في تكوين فلسفته, وقد لعب كتاب(أصل الانواع لدارون) الاثر الاكبر في تكوين مذهبه التطوري الفلسفي والعلمي والذي أمن به وعمل به.[2]

أما الكتاب الذي أثر في تكوينه العلمي فهو كتاب(علم الفسيولوجيا) تأليف(توماس هكسلي) والشارح لكتاب(أصل الانواع لدارون) بالإضافة الى مذهبه في النشوء والارتقاء), وقد أستمد من دراسته صورة قوية عن وحدة الكائن الحي, وقد أخذ عن ستانلي هول الاتجاه الحديث في علم النفس القائم على التجارب لا على النظر العقلي فقط. كما كان(لوليم جيمس) الاثر الاكبر خاصة في كتابه(أصول علم النفس) حيث يعتمد جيمس على تياريين:(1) أن علم النفس هو علم(الشعور).(2) أن علم النفس يقوم على(علم الحياة), وقد أصطنع(ديوي) الاتجاه الاول وقد رفض الاتجاه الثاني.[3]

وأخيرا نجد أثر زوجته(أليس تشابمان) وكانت محبة للعلم صافية الذهن رقيقة القلب, وكانت تحمل في ذاتها ثورة على الاوضاع الاجتماعية القائمة وما فيها من ظلم فدفعت زوجها الى الاهتمام بالفلسفة الكلاسيكية الى مشكلات الحياة المعاصرة, كما أنزلته من عالم النظريات الى عالم البشر وجعلت لهذا العالم معنى.

ولقد كان لبعض الفلاسفة الاحياء رأياً فب الثناء على الرجل وذلك بسبب بعض خصاله الحميدة وأثره في صنع الفلسفة والفكر الامريكي ومن ثم البرجماتي بصورة خاصة ومنهم(برتراند رسل) والذي تكلم عنه في(تأريخ الفلسفة الغربية) قائلاً:(أن ديوي الذي ولد عام 1895, يعترف به على وجه عام على أنه رأس الفلاسفة الاحياء في أمريكا وأني لاأوافقهم الرأي والتقدير تمام الموافقة, فقد كان له تأثير عميق لا بين الفلاسفة فقط بل على طلاب التربية والجمال والنظريات السياسية).[4]

(2) الفلسفة عند ديوي:

أن الفلسفة عند ديوي تعبيراً عقلياً عن الصراع الداخلي الذي يسري في ثقافة العصر, ومهمة الفلسفة أن تتعقب خيوط هذا الصراع الى أصولها ليضعها أمام النظر, ومصادر القوى التي تتجاذب عقول الناس فيسهل تشخيص الداء ووصف الدواء.[5]

لقد كان التطور في العلوم الرياضية والطبيعية والبيولوجية غير مصحوب بحدوث تقدم في العلوم الانسانية, فكان لابد من ظهور فيلسوف يحقق الصلة بين التياريين ويعمل على التوفيق بينهما وهذا ما فعله ديوي.[6]

يقول ديوي في كتابه(الحرية والثقافة) أن الفلسفة لا تستعيد مجدها وقوتها ألا أذا كفت عن معالجة مشكلات الفلسفة وأتجهت الى حل مشكلات الناس التي تصادفهم في شتى نواحي حياتهم العملية والاجتماعية.[7]

ولقد رفض ديوي أعتبار المعرفة شيئاً فطرياً أو تأملياً فالمعرفة فاعلية موجهة وهي جزء وظيفي من التجربة, فالفكر لمجرد الفكر يكون بلا غاية لآن الفكر مرحلة من مراحل الحياة, لا يمكن أن يفصله عن طريق التكيف مع الوجود, فالفكر أذن يرسم العمل, ولذلك فهي تصور الى الغد وليس اليوم, وليست الطبيعة المثبتة من قبل الفيزيائي مجرد حقيقة نظرية بل هي مؤقتة ويمكن للعقل أن يبدلها.[8]

---

1 أحمد فؤاد الاهواني(جون ديوي) الناشر: دار المعارف, القاهرة 1959, ط3, ص 34.
2 المصدر السابق ص 19.
3 المصدر السابق ص 22, 23.
4 برتراندرسل(تأريخ الفلسفة الغربية) ج1, ترجمة: زكي نجيب محمود, مراجعة: أحمد أمين, الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب, مصر, القاهرة, ط1, 2010, ص 259.
5 د, زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد) ص 163.
6 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) دار المعارف, القاهرة, 1959, ط3, ص 34.
7 جون ديوي(كتاب الحرية والثقافة)(1939) ص 23. freedom and culture.
8 جون ديوي: الموسوعة.

والفلسفة عند ديوي كالسياسة والادب والفنون التشكيلية هي نفسها ظاهرة من ظواهر الثقافة الانسانية, وأن صلتها بالتأريخ الاجتماعي والحضارة باطنية, أما الفلسفة في الوقت الحاضر فهي متحررة من ذلك التركيب المعقد ومن النظم التي تكون الثقافة ولكن الفلاسفة جزء من التأريخ يجرهم تياره وأن كانوا من بعض الوجوه خالقين لمستقبله ألا أنهم مخلوقات لماضيه[1].

والفيلسوف عند ديوي ليس صانعاً ولافناناً ولاعالماً ولكنه فيلسوف, له مهمة خاصة وميدان يختلف عن الميادين التي يختص بها الصناع والفنانون والعلماء, ومجال الفلسفة هي الطبيعة البشرية من جهة النفس والاخلاق والسلوك الاجتماعي ومن الواجب للفيلسوف أن يصوغ هذه الطبيعة البشرية كما يصوغ الصناع مهنتهم من المواد المختلفة.[2]

لذلك كانت أول مهمة للفلسفة في الوقت الحاضر كما يرى ديوي أن تقوم بتنظيف بيتها أولآ بأن تتخلص من مذاهب فلسفية موروثة(تعوق) التقدم الانساني, مثل الفصل بين العقل والمادة, وأرجاع العقلي والروحاني والمثالي الى قمة الوجود والحط من كل ماهو مادي, ودنيوي الى أدنى منزلة.[3]

أن هذا الفصل في الفلسفة عند(جون ديوي) يأتي أنعكاساً للفصل السياسي والاقتصادي بين الطبقات, حتى كان العبيد والصناع يشتغلون بالمهن المادية والمواطنون الاحرار بالعلوم النظرية, ثم لابد من أزالة الفواصل بين القيم الموضوعية والذاتية بين الغاية والوسيلة(وهذه هي المهمة التطهيرية).

والمهمة الثانية هي(النقد) وهي عنده (خلافاً لكانط ونقد العقل الخالص) فكان كانط يقصد بالنقد النظر في العقل البشري وتحليله لآنه أساس المعرفة, ولكن ديوي يرى في العقل رأياً مختلفاً أنه لايتكون من مقولات أولية سابقة على الخبرة, بل هو أداة من أدوات الخبرة.

كانط ← العقل يتكون من مقولات أولية على الخبرة(والتجربة).

ديوي ← العقل أداة من أدوات الخبرة.

وفي مسألة العقل البشري نجد ديوي متأثراً بداروين فالعقل هو نتاج التطور البيولوجي وهو أداة تطورت على غرار عنق الزرافة تسمح للجنس البشري بالتكيف مع العالم الفيزيقي, والبقاء على قيد الحياة, ويتعين بالتالي أخضاع فاعلية العقل ووظيفته للتجريب.[4]

ولذلك يرى ديوي وزملآئه البرجماتيين أن(الصدق) الحق صفة تنعت بها صيرورة, وحركة سيراً وفعلآ, فالصدق صفة(سكونية) عند الواقعيين والمثاليين, أما عند البرجماتيين صفة(حركية) لذلك فالطبيعة الحق عند هولاء لا يكون سابقاً على الانسان وخبرته فلم يكن هناك قبل الانسان(حق أزلي) أذ كيف يكون ولاأنسان هناك ولا أشكال ولا نشاط لحل ذلك الاشكال.[5]

ومنبع التصعيد عنده هو أن النظريات عن الذهن(mind) من الاحساس(sencetion) والادراك الحسي(perception) وعن العقل(resion) والفكر(intellectual) من الادراك العقلي(conception) والادراك الحسي(perception) لقد صيغت وأقيمت في الفلسفة مثل مثل نشأة المعرفة التجريبية.[6]

كما وقع ديوي تحت تأثير المثالية الجدلية(dialectic idealism) كما عند(رويس), وتأثر بمحاولة المثالية أن تشمل الاجتماعي والديني والعلمي والمعنى, ومهما كانت دراسته في علم النفس ودراسة النتائج التجريبية(empirical results) أكثر فأكثر, فقد جعلته يرى أن النتائج والمناهج(methods) والنتائج(concelation) للمثالية المطلقة(absoult idealism) لابد أنها تحتاج الى نوع من المراجعة(revision).[7]

1 الاهواني: جون ديوي, ص 223 - 227.
2 جون ديوي(البحث عن اليقين) ترجمة: أحمد فؤاد الاهواني, دار أحياء الكتب العربية, القاهرة, ط1, 1960, ص 8.
3 المصدر السابق ص 79.
4 جورج طرابيشي(معجم الفلاسفة) الناشر: دار الطليعة, بيروت, ط 1, 1987, ص 283.
5 زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد) الناشر: دار الشروق, بيروت, ط 3, 1987, ص 159.
6 جون ديوي(البحث عن اليقين) ص 137.
7 Stronth. gy(amercain phiolosphy) p: 240

من هنا يمكن أعتبار تأثيرات ديوي على الفلسفة من ضمن علاماته البارزة. [1]لقد كانت فلسفة ديوي تفاؤلية عكس فلسفات التشاؤم التي سادت القرن التاسع عشر والعشرين, فقد وضع ديوي أمله في التربية والحضارة والعلم ليأخذ بيد البشر في طريق الرقي والتقدم.[2]

(4) محددات مذهب ديوي:

لقد أعتبر مذهب ديوي متعدد الاطراف ولكنه في نفس الوقت ينبع من وحدة معرفية وبنية أبستمولوجية, مما يجعل الكثرة(فعلاً) تنطوي تحت الوحدة.

يقول د. زكي نجيب محمود(من الواقعية الى البرجماتية هو أنتقال من أمس الى الغد, الانتقال من الفلسفة التقليدية واقعية أو مثالية الى الفلسفة البرجماتية, فبعد أن كان أساس الحكم على قول بالصدق أو البطلان هو الرجوع الى الاصل الذي بعث على تقدير مايقرره القول أصبح الاساس هو النتائج التي تترتب عليه. ونظرية من النظريات العلوم حق أو باطل لا بمقدار ما تطابقه مع الواقعية التي يصورها, بل بمقدار هذه النظرية التي ترسم طريقنا في الحياة العملية, ومن بيان الفرق بين نظرة الفلسفة التقليدية من جهة ونظرة الفلسفة البرجماتية من جهة أخرى. [3]

أن تأريخ الامريكيين يكشف عن أعتبار النجاح المادي الملموس دليلاً على صحة السبل المتبعة, وهذه الصفة هي جوهر فلسفتهم المسماة بالبرجماتية ومن هنا يمكن أن نعد الامريكيين جميعاً برجماتيون, بأعتبار أن البرجماتية تعبر عن الروح الامريكية كما تعد المثالية تعبر عن الروح الالمانية أو التجريبية تعبر عن الروح أو(العقلية) الانكليزية, ثم جاء المفكرون والفلاسفة بصياغة هذه الروح البرجماتية مذهباً منسقاً وهذا ما فعله بيرس ثم وليم جيمس ثم جون ديوي, وأذا ذهبنا الى تحديد كنه التيار البرجماتي حيث نجد عدة اتجاهات في المذهب البرجماتي الحديث اتجاهات مختلفة ألبسته بالألوان المتعددة البراقة, وتستوجب البرجماتية ضرورة تغيير القيم والمعايير لتتلآم مع الظروف القائمة فكل فرد مسؤول أمام المشكلة التي تواجهه ومسؤول بالتالي عن حلها حلاً موفقاً فيكون هذا الحل الموفق هو الصواب والحق.[4]

ولذا وجب على الناس أن ينفضوا أيديهم عن الاعتقادات الجامدة في السياسة والاخلاق, وأن يخضعوا أعز معتقداتهم للاختبار العملي الذي يجعل النتائج مقياس الحق.[5]

أما البرجماتية عند ديوي فهي تلك الحركة الجديدة التي تسمى بالبرجماتية تارة أو التجريبية تارة أخرى, وليس هذه أسماء هذه المذاهب بمقدار ما تحمله من أفكار حيث تعترف البرجماتية أن العلم لايزال في طفولته وأن المنهج العلمي لم يصل الى تمام النضوج ولن يبلغ المنهج كماله الاحين يشتمل الامور الانسانية, ومهمة الفلسفة الاشتغال بالمشكلات الناشئة عن هذا الانفصال بين منهج مطبق مع العلوم وأخر على الانسانيات[6].

ويقول بياجية: تضم شرائعنا في الوقت نفسه سنة أخرى أكثر تقدماً, فتوجيه الصناعة والتجارة من أجل كسب المال ليس بالأمر الجديد ولاهو بثمرة عصرنا وثقافتنا توارثناها من الماضي البعيد, ويفضل البعض تسمية مذهب ديوي(بالمذهب الوسيلي instrumentalism), أو بنظرية البحث(theory of inquery), والمثالية التجريبية(Experantalism experimentalism), أو النزعة الطبيعية الانسانية.[7]

---

1 Ibid: 271.
2 الاهواني, أحمد فؤاد: فلسفة ديوي ص 81.
3 د. زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد) ص 137.
4 الاهواني, أحمد فؤاد(فلسفة جون ديوي) ص 20.
5 د. زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد) ص 172.
6 المصدر السابق ص 172.
7 جون ديوي(الفردية قديماً وحديثاً) ت: خيري حماد,, ترجمة: مروان الجابري,, مكتبة دار الحياة, بيروت, 1960, ص 17 / 18).

وهنا يرى ديوي أن الفلاسفة وهم الذين زرعوا في النفوس الحط من منزلة الفعل والعمل والصنع(making, action, doing) ولاريب أنهم كانوا يرفعون من شأن النظر على العمل, فقد كان العمل مجهدا ويتم بالقسر على حين كان النشاط الفكري(intellectiual activity) مرتبطا بالفراغ(leiser) ولما كان النشاط العملي غير باعث على السرور, فقد ألقى على كاهل العبيد والخدم(salves and serfers) الى جانب الارتباط الذي سار مع الزمن بين المعرفة والتفكير وبين المبادئ اللامادية والروحية وبين الفنون الخاصة بجمع النشاط العملي في المصنع والعمل وبين المادة, وهكذا نظر الناس الى الفنون التي بها يبلغون ما يمكن من الامن العملي نظراً أحط فالامن الذي تقدمه نسبي(relative) وناقص أبداً(ever inconceptual)[1].

وهنا نجد الاستاذ لويس هان(عميد كلية الاداب بجامعة واشنطن) يؤول مذهب ديوي على أنه السياقية(contextualism) ويفهمه الاستاذ هستون سمث على أنه مذهب العمليات العقلية(operationlism),ويرى البعض أنه الاداتية أو البرجماتية أو التجريبية ومذهب بعض الامريكيين أن ديوي فيلسوف التربية, ويذهب البعض الاخر أنه فيلسوف منهج ومنطق وأجتماع.[2]

ويطلق البعض على فلسفته الاداتية(المساعدة) instrumentalism وقد أوضح ذلك في كتابه(أعادة بناء الفلسفة) الذي يدل عنوانه على التطور والتحرر.[3]

ويقال أن الاداتية من فروع البرجماتية ومذهب الاداة هو قول ديوي(النظرية أداة أو ألة للتأثير في التجربة وتبديلها كما أن العلة أداة عند فلاسفة القرون الوسطى هي(العلة الفاعلة)[4].

ومما يدل على أن الافكار عند ديوي هي أدوات قوله لو بدأ المرء دون تحفظات عقلية في دراسة تأريخ الفلسفة لاعلى أنه شيء مستقل منعزل بل على أنه فصل من فصول تطور ونمو الحضارة, ولو ربط بين تأريخ الفلسفة ودراسة الانثروبولوجيا والحياة الذاتية وتأريخ الدين والادب والنظم الاجتماعية فمن الضروري أنه سيصل الى قيمة ما ورد, أن الفلسفة تحت قناع أنها تبحث في الحقيقة المطلقة أنما كانت فعلاً تهتم بدراسة القيم السابقة في الاحوال الاجتماعية(social traditioy) وأنها نشأت من الصراع والتصادم بين الغايات الاجتماعية.[5]

(1) أن التفكير لا يوجد الا حيث تبدأ المشكلة.

(2) أن التفكير ليس أمرأ عشوائياً وبلا هدف.

(3) أن الوظيفة الاولى للتفكير هي حل المشكلة التي نواجهها وأيضاح الغموض والاختلاف, وما دام الامر كذلك فأن الافكار هي أدوات(instrument) ينجز بها بعض النتائج المرغوب فيها تساعدنا على أن نعمل شيئاً.[6]

من هنا كانت الاداتية عند ديوي محاولة لوضع نظرية منطقية دقيقة عن التصورات والاحكام والاستدلالات في شتى صورها بالنظر قبل كل شيء الى التفكير كيف يعمل في تجديد النتائج المستقبلية تحديدا تجريبياً والغرض من الاداتية هو أذن تكوين نظرية عن الصور العامة للتصور والاستدلال لاعن هذا الحكم أو ذاك ولذلك تبرز الاداتية أهمية الفرد وتضعه في الاعتبار الاول فالفرد حامل للفكر المبدع وصانع العمل.[7]

1 صلاح قنصوة(نظرية القيم في الفكر المعاصر) ص 135.
2 الاهواني(أحمد فؤاد) ص 10.
3 ديوي(أعادة البناء في الفلسفة) ترجمة: أحمد الانصاري, مراجعة: حسن حنفي, الطبعة الاولى, 2010, المركز القومي للترجمة, مصر, القاهرة, ص 211.
4 جميل صليبيا(معجم الفلاسفة) ص 304.
5 د, عبد الرحمن بدوي(موسوعة الفلسفة) ج1, ص 499 - 500.
6 المصدر السابق ص 499 - 500.
7 الاهواني, أحمد فؤاد:(فلسفة جون ديوي) ص 134.

كما يرى ديوي أن موضوع المعرفة شيء أشرف وأكمل من أية معطيات أخرى وهو قائم بذاته مكتف بذاته, والاداتية كما تعترف بالمعطيات(data) أنها موجودة وجودا موضوعيا تعترف كذلك بموضوعية(المعاني) التي ترجع أليها في البحث وتستخدمها في ثقة. وفي كتاب المنطق الذي صدر عام 1938 عدل ديوي من مذهبه في الاداتية الى القول بالعمليات العقلية[1].

وقد كان وليم جيمس أول من نبه على فضل ديوي ومدرسة شيكاغو في محاضراته التي نشرت في كتاب(البرجماتزم) وقال أن اتجاهاتها تمثل النظرة الاداتية عن الحق تلك النظرة التي تعلم بنجاح في مدرسة(شيكاغو) حيث أن الافكار تصبح حقاً بمقدار ما تعيننا على الظفر بعلاقات مرضية(satisfactory) مع أجزاء أخرى من الخبرة.[2]

يمكن القول أن ديوي كما يرى(الاهواني) لم يكن صاحب مذهب مطلق بمقدار ما كان صاحب(منهج) يفتح له لآفاق ويشق الطريق في عالم من التغير, وترجع صعوبة فلسفته الى محاولته استخلاص الحقيقة من براثن هذا التغير وقديما وصف هرقليطس بأنه(الغامض) لآنه فهم حقيقة العالم(أنها التغير المتصل, ولعل أصدق وصف يمكن أن يخلع على(ديوي) هو ذلك اللقب القديم لهرقليطس "الغامض ".[3]

يمكن القول: أن مذهب ديوي هو(المذهب الواقعي, البرجماتي, الوضعي, التجريبي, الاداتي, السياقي)

وباختلاف التسميات الاأنها تصب في مصب واحد هو الواقعية في التعامل مع معطيات الحياة, من فكر ومن سياسة وفن ودين وتربية, وذلك عن طريق أعادة صياغة الافكار والنظريات وبطرقة عملية, ولذلك كانت تسمى البرجماتية وهي الانسب في الوصف والتسمية.

(5) العوامل التاريخية:

يعد فرانسيس بيكن رائد التبشير للحياة الحديثة, وقد كان بالرغم من قلت أنجازاته نبيأ ومبشراً للاتجاهات الجديدة, وعلامة هامة في عالم الحياة الثقافية, فلقد عانى مثل كل الانبياء من عملية المزج بين القديم والجديد, وظهرت قيمة أعماله بسبب الاحداث اللاحقة بعد وفاته, فقد كانت كل صفحة من تلك الصفحات التي كتبها تناقش موضوعاً من الموضوعات القديمة والافكار التقليدية التي أعتقد بيكن أنه تخلص منها, ولم يحتل مكانته بوصفه المؤسس الحقيقي للفكر الحديث بسبب عملية المزج بين القديم والجديد, وأنما بسبب بعض الانجازات التي نسبت أليه وبالرغم من أنه مؤلف المنهج(الاستقرائي) الذي أعتمد العلم عليه فيما بعد.

لقد أحتل بيكن مكانته الفكرية وطبع في ذاكرة التأريخ بسبب تلك الريح التي هبت في عالم جديد, فملآت شراعه ودفعتة للمغامرة في البحار الجديدة, ولم يكتشف أرض الميعاد ولكنه حدد الهدف الجديد, ولم يصل الى الهدف المنشود ولكنه حدد ملامحها حدسياً.[4]

لقد ضمت أفكاره الملامح الرئيسية للروح الجديدة التي أدت الى الاهتمام بعملية أعادة البناء الثقافي وكشف القوى التأريخية والاجتماعية التي ولدت هذه الروح الجديدة, وقد كانت حكمته المأثورة (المعرفة قوة) وحكم على كل معارف عصره وفقاً لهذه الحكمة, وأعتبارها معارف زائفة وليست حقيقية لآنها لا تحقق القوة, والطائل من ورائها وليست معرفة فاعلة أو مؤثرة في حياتنا, وقد صنف التعليم في أيامه الى ثلاث موضوعات رئيسية: (1) رومانسية رقيقة (2) موضوعات خيالية وغير واقعية وعجيبة (3) موضوعات مثيرة للجدل والخلاف والصراع, ضمت الموضوعات الرومانسية التعليم الادبي الذي ظهر نتيجة أحياء اللغات القديمة وأحتل مكانة هام في الحياة الثقافية في عصر النهضة, وكان نقده لهذه الموضوعات مؤثراً فقد كان هو نفسه أستاذاً للادب الكلاسيكي ومدركاً للقيم التي هدف البحث الى بيانها وشرحها.

لقد أستطاع توقع معظم الانتقادات التي وجهها المصلحون التربويون لثقافة البعد الواحد أو الثقافة الاوربية, أذ لا تساهم هذه الثقافة في تحقيق القوة أنما تصلح للزخرفة والتزيين والترفيه والتسلية, وقصد بالتعليم الغريب والعجيب موضوعات العلم الشبيه بالسحر

1 المصدر السابق ص 105 - 107.
2 المصدر السابق ص 100 - 101.
3 المصدر السابق ص 43.
4 جون ديوي(أعادة البناء في الفلسفة) ترجمة: أحمد الانصاري, مراجعة: د, حسن حنفي, المركز القومي للترجمة, مصر, القاهرة, ط1, 2010, ص 60.

والتي كانت منتشرة في كل القرن السادس عشر, وصاحبت التطورات التي حدثت في علمي الكيمياء والفلك وغيرهما وقد صب جام غضبه على تلك الموضوعات أذ أعتبر محاولة أحياء الامور الخيرة والحسنة أسوء أنواع الشر, فأن كان التعليم الرومانسي تافهاً لاجدوى فيه ومثيراً للملل فأن التعليم الخيالي, أو غير الواقعي شوه صورة المعرفة الحقة وزيفها وجعل هدف المعرفة السيطرة على الطبيعة, ولم يوضح المناهج التي يمكن بها الحصول على هذه المعرفة وتحقيقها فقاد الناس الى الظلال.[1]

ويعد ما قاله عن التعليم المثير للخلاف والنزاع في منتهى الاهمية بالنسبة الى الموضوع المدروس, وتعين به العلم التقليدي الذي جاء ألينا مشوهاً ورديئاً عن العصور القديمة على يد الفلاسفة المدرسيين وقد وصفه بأنه مثير للخلاف لسببين أولهما (1) المنهج المنطقي الذي تم استخدامه (2) الغاية التي تم استخدام هذا المنطق لتحقيقها, لقد هدف هذا العلم بمعنى معين الى تحقيق (القوة أو السيطرة) ولكنه قصد تحقيق هذه القوة أو السيطرة على الاخرين لتحقيق مصلحة(طبقة معينة) أو شخص لم يهدف الى تحقيق السيطرة على الطبيعة لتحقيق مصلحة البشرية, لقد كان بيكن على علم بأن الخلافات والنزعات التي جاء بها المدرسيون لم تكن بسبب العلم اليوناني ذاته بقدر ما كانت بسبب الثقافة المدرسية المتدهورة في القرن الرابع عشر, حيث عانت الفلسفة من خلافات رجال اللاهوت, وأهتمت بالجدل بصغائر الامور, والامور التافهة والحيل التي يتم بها التغلب على الاخرين.[2]

وبالرغم من قناعته بعدم مسؤولية العلم اليوناني عن ظهور هذا النمط من الموضوعات الأأنه هاجم المنطق الارسطي, أذ هدف هذا المنطق في صورته الصارمة والمجردة الى(البرهان) وفي صورته المعتدلة الى الاقناع ونلاحظ أن هدفهما كان السيطرة على العقل وليس الطبيعة, وتفترض كلتاهما أن شخصا لديه حقيقة معينة وأعتقاد خاطىء وتتمثل المشكلة كلها في محاولة أقناع فرد أخر بهذه الحقيقة أو ذلك الاعتقاد أو تربيته أو تعليمه بشكل عام, وحين وضع بيكن(مفهومه الجديد للفلسفة) فقد قلل من أهمية الحقيقة الموجودة(بالفعل), وأهتم بتلك الحقيقة التي مازالت بعيدة وهناك حاجة اليها أي التي لم يتم تحصيلها بعد كان لديه أعتقاد جازم بأن الحقيقة لم تكتشف بعد وتحتاج لمنهج يحقق الوصول أليها فكان منطقه منطقاً للكشف وليس منطقاً للجدل والبرهان والاقناع, وقد أعتبر المنطق القديم في أفضل حالاته منطقاً لتعليم ماهو معروف من قبل أو بالفعل, ففي التعليم تترسخ عقيدة معينة أو مذهب في الذهن, أذ كان لدى أرسطو بديهية تعني أن ماهو معروف بالفعل يمكن تدريسه ونقله للاخرين.

وعن النمو المعرفي لدى بيكون تطبيق لحقيقة كلية عقلية على حقيقة جزئية حسية تتم ملاحظتها مسبقاً بشكل مستقل ولما كان التعليم يعني نمو المعرفة ويتعلق بالنمو لما يحدث في المستقبل والتفسير فأنه يكون أسبق في عملية أمتلاك المعرفة من عملية القياس المنطقي وأسبق من البرهان.[3]

(6) ديوي والخبرة:

لا عجب من القول أن ديوي فيلسوف الخبرة فقد تحدث عنها في صلتها بالطبيعة وفي صلتها بالتربية وفي صلتها بالفن في ثلاثة كتب مشهورة, وذهب الى وضع مذهب جديد في التربية أستلهمه من شعار الديمقراطية المشهورة ذلك هو(التربية للخبرة, وعن طريق الخبرة, وفي سبيل الخبرة) لآن التربية عملية ترقي في نطاق الخبرة وعن طريقها وفي سبيلها.[4]

فالخبرة أولا: لا تقال في مجال الامور الانسانية والتي سميت كذلك لآنها ثمرة المعاناة داخل الفرد وذلك في مقابل الامور الطبيعية من الخبرة الانسانية غير أن ديوي لا يفصل هذا الفصل الحاسم بين الخبرة والطبيعة, بين ما هو أنساني ولاأنساني وبين الشخصي والموضوعي لآن مذهبه على وجه الاجمال ينحو نحو الوحدة لا الثنائية والتعدد.

والمثال الشهير الذي يضربه ديوي في مجال تفسير الخبرة هو مثال الطفل الصغير حين يلمس النار بأصبعه, فليس حرق النار لأصبعه(الطفل) كافيا في حصول الخبرة, بل لابد من أن يتألم ثم يدرك أن النار محرقة ثم يتعلم من ذلك أن يتجنب النار حتى لا تحرقه

1 المصدر السابق ص 60.
2 المصدر السابق نفس الصفحة.
3 المصدر السابق ص 61.
4 جون, ديوي(الخبرة والتربية) ص 20 - 22).

ومعنى ذلك أن الخبرة تقوم على فعل وانفعال, على تأثير وتأثر ولأتقف الخبرة عند هذا الحد بل تتجاوزه الى فهم الشخص لما وقع في خبرته, وعلى الاستفادة من ذلك الفهم في المستقبل أي العلم بعواقب الامور, والخبرة بهذا المعنى شيء حي مادامت تنمو مع نمو الفرد واضطراد تعلمه في الحياة.[1]

ولكن ديوي من الجهة المقابلة لا يجعل من التجربة خبرة حقيقية بمعنى الكلمة لآنها ليست بصيرة تقوم على الفهم والادراك, فالفهم هو(أدراك العلاقات بين الاشياء) فاذا أدركنا أن النار(علة) في الاحراق استطعنا أن نستفيد من هذه المعرفة في تكييف أنفسنا وفي السيطرة على المستقبل, وللخبرة مظهران عند ديوي, مظهر مباشر من حيث ملائمتها للشخص واستمتاعه بها أو عدم ملائمته لها وعدم استمتاعه بها.

ومظهر غير مباشر من حيث تأثيرها فيما يأتي بعد ذلك من خبرات, غير أن الاهم من الناحية الفلسفية هو المظهر الثاني الذي يسمح للخبرة بمتابعة النمو, وليست كل خبرة هي نافعة على العكس قد تكون ضارة, والخبرة الضارة هي التي تعوق نمو الخبرة في المستقبل, لآنها قد تؤدي الى التبلد كما تمنع الحساسية والاستجابة للمؤثرات استجابة طيبة فتقلل بذلك من قدرة الشخص على الحصول على خبرات أغنى في المستقبل. [2]

والخلاصة: أن الخبرة ليست شيئا مستقلا منعزلا, فلا توجد خبرة تبدأ وتنتهي مستقلة بذاتها, بل كل خبرة وأن كانت مستقلة كل الاستقلال عن رغبة الفرد وقصده فأنها تخلد بأثرها في غيرها من الخبرات, وهي كالحياة نفسها متصلة النمو وهذا يسلمنا الى مبدأين أساسيين للخبرة هما:(1) الاستمرار(2) التفاعل.

مبدأ الاستمرار يعني أيضاً تواصل الخبرة(experimental continnum) يعتمد على العادة بشرط أن يفسر تفسيراً بيولوجياً, ومن الجدير بالقول أن(العادة) لا تعني فقط طريقة ألية لممارسة الاعمال بطريقة ثابتة, وإنما هي تكوين الاتجاهات النفسية انفعالية كانت أم فكرية, ثم كيفية مواجهة الاحاسيس الاولية واستجاباتنا لظروف الحياة, فالعادات ليست ثابتة مطلقا بل تتعدل وتتغير, ثمرة تغير الظروف الخارجية ونمو الفرد, وينشأ عن هذا التعديل من طبيعة الخبرة لآن كل خبرة يمارسها الشخص تعدله, وهذا التعديل يؤثر بدوره في صيغة الخبرات التالية, وبالإمكان اكتساب الخبرة من طريقين هما:(1) أما بطريق ديمقراطي(2) أو بطريق دكتاتوري. وأساليب المدرسة القديمة كانت تقوم على التعسف والقهر وأتما م الخبرة في نفوس الصغار, وهو يؤثر الطريق الديمقراطي الذي يقوم على أحترام حرية الفرد ويقول(أن السبب في أيثارنا الديمقراطية هو أيماننا بأن التشاور والاقناع عن طريق الحجة ينتجان نوعا من الخبرة أرقى فما يتاح بأي وسيلة أخرى في نطاق واسع).[3]

والخبرة قوة محركة في سلوك الانسان وتعتمد قيمتها على أساس الهدف الذي تتجه نحوه وتعمل للوصول أليه, وليست مهمة المرىء أن يخلق الخبرة بل أن يتبين الاتجاه الذي يسير فيه ويعمل على تقويته.[4] والخبرة الصحيحة هي تلك التي تجمع بين الظروف الخارجية والنزعات الداخلية وتنظم تلك الظروف الخارجية بحيث تتناسق مع الرغبات والدوافع الباطنية فالخبرة ثمرة التفاعل بين المطالب النفسية الباطنية وبين الظروف الخارجية, وهنا يجب التحدث عن المبدأ الثاني للخبرة وهو التفاعل.

تحدثنا فيما سبق عن العاملان اللذان يكونان الخبرة, وهما الظروف الخارجية والداخلية, وكل خبرة عادلة هي ثمرة التفاعل بين بين هاتين المجموعتين, ونسمي تفاعلهما عادة(بالموقف) والخبرة الحقيقية تقتضي ضرباً من التنظيم والتنسيق بين الظروف الخارجية والداخلية, مثال على ذلك هو أن الطفل في حاجة الى الطعام والراحة واللعب, والام الحكيمة هي التي تستطيع أن تنظم هذه العوامل الثلاثة بحيث تستطيع أن توفق بين تلك العوامل الداخلية

1 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) ص 51.
2 المصدر السابق ص 53.
3 جون ديوي(الخبرة والتربية) ص 26 - 27.
4 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) ص 55.

والتفاعل يتم بين الفرد وبين غيره من الاشياء وغيره من الافراد, وتحصل الخبرة من هذا التفاعل بين الفرد وبين البيئة, أي بين حاجات الفرد ورغباته ونزعاته وبين الظروف الخارجية, والتفاعل بين هاتين المجموعتين يسمى(الموقف), أذن فالموقف والتفاعل متلازمان ووجود المرء في سلسلة من المواقف يؤدي الى اكتساب خبرات جديدة والى استمرار الخبرة ومن ثم كان مبدأ(التفاعل) متصلا بمبدأ استمرار الخبرات, أذ كلما مر الفرد من موقف الى أخر أتسع عالمه, وهذه الحالة ترتبط بفعل(الحرق) فعندما يرسل أو يمد الولد يده في النار فهو يعاني من ألم (الحرقة), فأذن أرسال اليد في النار وألم الحرقة هنا يحدث استمرارا وارتباطا ببعضهما البعض, ويستدعي أحدهما ظهور الاخر في العقل ويعينه, وعندئذ تحدث لنا تلك الخبرة, وهي خبرة بمعنى(ديوي) لها حيويتها ولها دلالتها ومعناها.[1]

(8) نظرته الى الفلسفة:

أن الخطوط الرئيسية لفلسفة ديوي أودعها في كتابه (الديمقراطية والتربية) ويبدو أنه جعل من الفلسفة نظرية عامة في التربية, ذلك أنه أرجع الفلسفة الى معناها الاصيل وهو (محبة الحكمة) أي الصلة بين الفكر والسلوك في الحياة, أذن فالفلسفة من حيث مادتها هي محاولة الاحاطة أي الجمع بين التفاصيل التي تتصل بالعلم والحياة في(كلآ واحداً), وهذا الكل أما أن يكون وحدة وأما أن يتنزل بالتفاصيل الكثيرة الى عدد صغير من المبادىء النهائية كما هو الحال في الثنائية, أما من حيث موقف الفيلسوف وموقف من تتقبلون استنباطاته ثم محاولة التوصل الى نظرة موجزة كاملة مستقلة عن الخبرة ما استطعنا الى ذلك سبيلا, وهذه الناحية يعبر عنها بكلمة (الفلسفة) أي (حب الحكمة).[2]

وبعد فأن الفلسفة متصلة اتصالا مباشرا بالحياة فما يميز الفلسفة عن العلم, وهذه الصلة التي تربط بين الفلسفة والحياة هي التي أفضت به الى القول بأنها نظرية عامة في التربية.

ومن الواضح أن الخبرة هي أساس هذه العقيدة الفلسفية, ولآجل ذلك سمي ديوي(فيلسوف الخبرة) كما سمي مذهبه بالتجريبية وقال(أن مساهمتي في المقالات الاولى لكتاب(الفلسفات الحية) بدأه بقوله: أبرزت فكرة الايمان في أمكانيات الخبرة باعتباره صميم فلسفتي, وسيظل الافراد دائما مركز الخبرة وكمالها ولكن ماهية الفرد الواقعة بالفعل في حياة خبرته تعتمد على طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها.[3]

(9) الفلسفة والحضارة:

وللفلسفة دور هام في تأريخ الحضارة, بل لا فرق بين الفلسفة ودورها في تأريخ الحضارة فاذا اكتشفنا الوظيفة الصحيحة للحضارة فقد حددنا وعرفنا دور الفلسفة ذاتها وأن حاولت تعريف الفلسفة بأي طريق أخر فقد ظللت.[4]

ويقول في هذا البحث أن الفلسفة كالسياسة والادب والفنون الجميلة هي نفسها ظاهرة من ظواهر الحضارة الانسانية, وعلاقتها بالتأريخ الاجتماعي والحضارة علاقة ذاتية ملازمة, وليست فلسفة الفيلسوف الا مرأة زمانه وهي أثر للصراع بين النظم الاجتماعية والثقافية القائمة, وهي صراع بين القديم والجديد, وليس ظهور الفلاسفة بمذاهب جديدة مثل(بيكون, وديكارت, وكانت) الا دليلا على التوفيق بين الموروث من التقاليد وبين النزعات العلمية الجديدة مما لا يتفق مع جملة التقاليد الموروثة, والفلاسفة جزء من التأريخ فهم واقعون في شراكة, وقد يكونون خالقين للمستقبل الى حد ما, ولكنهم في الوقت نفسه من خلق الماضي.[5]

أما القائلون أن الفلسفة تبحث عن الحقيقة الازلية المطلقة بصرف النظر عن تأثير الزمان والمكان فهم مضطرون الى التسليم بأن الفلسفة كيانا تاريخيا وطريقا زمانيا, ومواضع في شتى الامكنة في العالم.

1 جون ديوي(التجديد في الفلسفة) ص 168 - 169.
2 المصدر السابق ص 71.
3 جون ديوي(البرجماتية والثقافة الامريكية) ضمن نشرة عقيدتي.
4 Deway: philosophy and civilastion,: 193 p 3 -12.
5 الاهواني, أحمد فؤاد(فلسفة جون ديوي) ص 47.

واذا نظرت الى تأريخ الفلسفة من أية زاوية وفي أي عصر وجدت تراثا ثقيلا قد أنحدر أليها من الماضي السحيق, كما تجد اهتمامات تشغل الاذهان فيدفعها الى الثورة نحو قيم جديدة في الحياة, في أثينا كانت المشاغل التي تشغل أذهان الفلاسفة سياسية وفنية, في حين أن فلاسفة الوقت الحاضر تجدهم يبحثون في النواحي الاقتصادية والعلمية وراء ذلك كان لابد أن يكون هناك عمل فكري تؤديه وهو الفلسفة.[1]

ومن هنا فللفلسفة صلة وثيقة بتأريخ الثقافة وبالتغيرات المتتابعة في الحضارة تغذيها تيارات من التقاليد يمكن أن تتبعها في الاوقات العصبية الى منابعها كي يتلقى التيار وجهة جديدة, ويخصبها تحسن الاختراعات الجديدة في الصناعة والفتوحات الجديدة في العلم, ولكن الفلسفة ليست مجرد أنعكاس سلبي للحضارة التي تستمر من خلال التغيرات وتتغير من خلال الاستمرار, أنما هي نفسها تغير فالفلسفة تدل على تغير الحضارة.

وظيفة الفلسفة:

وأذا رجعنا الى تصور ديوي للفلسفة بعد الحرب الاخيرة نجد أنه كان بحثا في القيم فلقد أنتهى ديوي كما أنتهى أفلاطون الى أن صميم الفلسفة هي البحث في الخير فلقد أقام ديوي فلسفة القيم لديه على أسس علمية.

والفلسفة أنما تبحث في القيم لآن أكثر أشتغالاتها بالإنسان وسلوكه في الحياة فالقيم عند ديوي هي التي تحدد قيمة الاطفال وتحدد السلوك الناتج عنها.[2]

لقد أقر ديوي منذ البداية أنه ليس هناك تعدد في الفلسفة بل هناك فلسفة واحدة وتبحث في قيمه وسلطة مسلم بها, ومن المؤكد أن البحث في تلك السلطة أو المسلمة لم يرجعها الى سلطة غيبية في محاولة منه لردم الهوة بين الماضي والحاضر بل أرجعها الى سلطة مستمدة من الحياة نفسها وما يكسبها الانسان فيها من خبرة لقد كانت الفلسفة في العصر الوسيط لاهوتاً يصدر عن فلسفة غيبية فوق طبيعية, ومن ثم نشأت الثنائية بين الفوق طبيعي والدنيوي وظهرت الثنائيات المشهورة في تأريخ الفلسفة, وقد ورث أصحاب التقدير فلسفة العصر الوسيط فذهبوا الى أن الفلسفة وهي العلم(بالوجود) و(بالحقيقة) وكلاهما أشمل وأعمق مما يمكن أن تقوم العلوم الحديثة ومالها من مناهج ببحثه, ذلك أن العلم الحديث يتعلق بالمتغير بالداخل في الزمان(بالحادث) على حين ظلت الفلسفة تبحث في الازلي والضروري بذاته.

وأذا رجعنا الى الفلسفة قديما زمان سقراط رأينا أنها كانت(محبة الحكمة) ولكنها اليوم لم تعد كذلك لآن الحكمة هي التطبيق البعيد لما نعرفه في السلوك على أمور الحياة. أما الفلسفة اليوم فقد أنعزلت عي الحياة وأخذ الفلاسفة يشتغلون بمباحث ميتافيزيقة مثل(نظرية المعرفة), وفي أسس المعرفة وأمكانها وشروطها. [3]

أن المناهج العلمية من وجهة نظر ديوي تقدر الظروف الاقتصادية المحسوسة التي التي يعيش الناس في ظلها, ولكنها لا تخدم الاغراض الاخلاقية والانسانية التي تخدم القيم الحاضرة, من أجل ذلك تركت هذه الامور الانسانية وهي الاهم يحددها العادات والاهواء ومصالح الطبقات والتقاليد المتميزة في النظم المختلفة وهذه كلها واقعة في أيدي أصحاب السلطان والقوة الذين لا يحفلون ألا بصالحهم الخاصة والتي تقتضي ارتفاعهم على غيرهم.

لقد أنكرت الفلسفة الحديثة أمكان العقل معرفة الامور السياسية والاخلاقية على الجملة الانسانيات, وتذهب الى أن الامور العملية مسألة قيم وتقدير وبناء على ذلك فهي بطبيعتها عاجزة عن التقدير الفكري على أساس عقلي, وهذه الحركة مستمدة من الاغريق الذين رفعوا الفكر على العمل, والعمل موضوع التغير لا الوجود الثابت وتزعم هذه الفلسفة الجديدة أن الامور الاخلاقية لآنها تتعلق بالقيم الذاتية أو الاغراض في ذاتها فهي خارجة بالكلية عن نطاق أي نوع من المعرفة.

1 المصدر السابق ص 74.
2 المصدر السابق ص 75.
3 المصدر السابق ص 77.

من هنا يمكن القول أن الفلسفة الجديدة التي يدين بها ديوي ويبشر بها تفترق عن الفلسفة القديمة في أن غاية الفلسفة ومهمتها هي البحث عن الحكمة وعن الغايات والقيم التي توجه النشاط الاجتماعي, وفي الجهة المقابلة يجب الابتعاد عن الحقائق الازلية الكلية والتي تمهد طريق السير في البحث والاعتماد على المناهج العلمية التي نجحت في العلوم الطبيعية والحيوية, وأذا أبعدنا هذه المقومات استطلاعات المناهج العلمية البحث في الامور الاجتماعية والانسانية.[1]

وهذه الحركة الجديدة تسمى(البرجماتية) تارة والتجريبية تارة أخرى أو الاداتية تارة ثالثة, وليس المهم هو أسماء هذه المذاهب بمقدار ما تحمله من أفكار.

وتعترف البرجماتية أن العلم لايزال في طفولته وأن المنهج العلمي لم يصل بعد الى تمام النضوج, وأنه لا يبلغ كماله الابعد اشتغاله بالإنسانيات, وأن مصدر الشرور راجع الى عدم التوازن في تطبيق المنهج على كل شيء لآنه يطبق على العلوم فقط, ومهمة الفلسفة هي الاشتغال بالمشكلات الناشئة عن هذا الانفصال بين منهج يطبق على العلوم وأخر يطبق على الانسانيات, أن فلسفة اليوم تبحث في مشكلات تتصل بالزمان والمكان في حين أها كانت في السابق تبحث في مشكلات خارج الزمان والمكان أي أنها تبحث في المطلق, والمقولة المشهورة عنها أنها لا تبحث في الجزئي بقدر البحث عن ما هو كلي وعلاقات عامة وواسعة.

والمهمة الاولى للفلسفة هي أن تقوم بتنظيف بيتها من كل ما هو موروث وخاصة المذاهب الفلسفية والتي تعوق التقدم الانساني ومن أمثلتها البحث في الفصل بين المادة والعقل ورفع المثالي والروحاني الى قمة الوجود والحط من كل مادي ودنيوي الى مرتبة سفلى أو منزلة أدنى, وهو أنعكاس للفصل السياسي والاقتصادي بين الطبقات, فقد كان العبيد والصناع يشتغلون بالمهن المادية والمواطنون الاحرار بالعلوم النظرية, ولاتزال النظرة الى الاعمال المهنية أقل شأننا من الاشتغال بالسياسة مثلآ وتتصل بمهمة تنظيف الفلسفة بيتها وإلغاء الثنائية التي تفصل بين القيم الموضوعية والذاتية وبين الغاية والوسيلة وإلغاء النظر الذاتي الى القيم على أساس أنها شخصية وهذه هي المهمة التطهيرية.[2]

والمهمة الثانية للفلسفة هي النقد وقد كان متأثرا في ذلك بفلسفة كأنط, غير أن مهمة الفلسفة النقدية تختلف عنها عند صاحب(نقد العقل الخالص) فقد كان كأنط يقصد بالنقد النظر في أمكانيات العقل البشري وتحليله لآنه أساس المعرفة, والطريق الموصل أيها في حين أن ديوي ينظر الى العقل من وجهة نظر مختلفة فهو لا يتكون من مقولات أولية سابقة على الخبرة بل هو(العقل) أداة من أدوات الخبرة, والفلسفة بحاجة الى نقد منظم شامل للمناهج السائدة في العلوم الاجتماعية, كما بدأ العلم بالبحث في المناهج وسار في الطريق الموصل الى المعرفة الصحيحة عن طريق المحاولة والخطأ, وهو جهد لا يمكن أن يقوم به فرد واحد بل جمع من الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة. ولما كانت فكرة العقل في الفلسفة التقليدية قد ارتبطت(بالذات الفردية)أذن يجب أن نبعدها عن الفلسفة والطريق الصحيح للمعرفة هو الملاحظة المنظمة للظروف الطبيعية والاجتماعية والبيولوجية التي تسير بموجبها المعرفة, لقد وضع ديوي أمله في التربية والحضارة وفي العلم ليأخذ بيد البشرية في طريق الرقي والتقدم[3].

البرجماتية كمذهب فلسفي:

يقول(جون تشارلز): الحركة التي تعرف في الفلسفة باسم(البرجماتية) أو(الاداتية) أو(التجريبية) هي في الواقع تعبير عن الثقافة الامريكية وأبرز ملامحها صفة التجريبية فهي تقبل الخبرة الانسانية العادية منبعا نهائيا وامتحانا أخيرا لكل معرفة وقيمة ولدى مؤسسيها الاربعة: تشارلز ساندرز بيرس(1839 _ 1941) وليم جيمس(1842 – 1910) جون ديوي(1859 – 1952) وجورج هربرت ميد(1863 – 1931) في أمريكا, والبرجماتية تعبر عن روح العالم الجديد المعروف بأمريكا وهي فلسفة تعبر عن مزج بين أفكار الانسان الاوربي المهاجر الى أمريكا وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها, وقد كان هولاء المهاجرون يؤمنون بالحرية.

1 المصدر السابق ص 78.

2 المصدر السابق ص 79.

3 المصدر السابق ص 82.

لقد كانت هذه الحرية لا تؤمن بالجبر وبأن ظروف الحياة يمكن تحسينها بالتصميم المسترشد بالعقل, فالاعتقاد الاساسي أن التفكير مرتبط أتباطأ كبيرا وملازما بالعمل.

وكذلك النظريات والمذاهب هي عبارة عن فروض للعمل تمتحن بما ينتج عنها في المواقف الفعلية للحياة, وان المثل الاخلاقية فارغة عقيمة أذا انفصلت عن وسائل تحقيقها وأن الحقيقة ليست ثابتة وليست نظاما كاملا بل الحقيقة هي عملية جارية في تغير مستمر. وأن الانسان ليس لعبة بيد قوى خارجية ولكنه يستطيع أعادة تشكل الظروف التي تصوغ خبرته بعزمه وأرادته, وأن الناس في استطاعتهم تنمية نشاطهم ومؤسساتهم ومبادئهم التي تنظم سلوكهم, وهذه الروح هي التي تعرف بالبرجماتية وهو أسم يطلق على الروح الامريكية.[1]

البرجماتية:

لقد أنعقد الاجماع على أن أصل مذهب البرجماتية هو(تشارلز ساندرس بيرس), وليم جيمس, وجون ديوي, وبيرس هو أحد أشهر الرياضيين الامريكان وهو أحد مؤسسي المنطق الرمزي الحديث وطريقته البرجماتية تنطبق على عالم الفكر من الفكر ضيق ومحدود جداً, وعند عرضه لآصل هذا المذهب فقال أنه ليس فكرة أمريكية بحته كما يقول بعض الناس ذلك أن اصطلاح(برجماتي) أخر نشأ في ذهن بيرس عند دراسته لكانت والذي ميز في كتابه(ميتافيزيقا الاخلاق) بين(برجماتي pragmaticist) وبين(عملي practical) فالعملي عند كأنط ينطبق على القوانين الاخلاقية والتي يعدها أولية(aparior), أما البرجماتيين فتنطبق على قواعد الفن والصفة التي تعتمد الخبرة وتقبل التجربة, ولما كان بيرس(تجريبياً emperisites) فقد أكتسب عادات المعملية العقلية هنا فقد رفض أن يسمي مذهبه(المذهب العملي practicalism) هذا من جهة, أما من الجهة الاخرى فهو منطقي قبل كل شيء, من هنا فقد كان يهمه فن التفكير الواقعي, ويهتم بوجه أخص فيما يتصل(بالمنهج البرجماتي) بالفن والذي يجعل التصورات واضحة.[2]

لقد أنشأ بيرس نظريته القائلة بأن الدلالة العقلية للفظ أو العبارة تقدم بوجه الاخلاق على أثرها في السلوك, ثم تطورت نظريته في المقالة المشهورة(كيف نجعل أفكارنا واضحة) فالمعنى المعقول لآية قضية تقع في المستقبل, وعند التساؤل عن الصورة التي يمكن أن تكون عليها القضية هي التي يجب التساؤل عن معناها, أنها عند البرجماتي هي تلك الصورة التي يمكن تطبيقها على السلوك الانساني لا على هذه الظروف أو تلك.

يقول ديوي: أتهامان خاطئان ينسبان الى واقع البرجماتية, الاولى: أنها تجعل العمل غاية الحياة, والثاني: أنها تخضع الفكر والنشاط العقلي لغايات خاصة في المصالح والنفع, من هنا فالنظرية عند بيرس تستلزم أن تقوم علاقة معينة بالعمل والسلوك الانساني, فالمعنى الانساني للتصورات هي في أمكانية التطبيق على الواقع, وهذا التطبيق سبيله هو العمل, وتفسير الوجود الذي ينشأ عن هذا التطبيق وهو الذي يكون المعنى الصحيح للتصورات, ومن هنا فالبرجماتية أبعد ما تكون عن تمجيد العمل لذاته.

من الملاحظ عند بيرس أن هناك سلماً للتطبيقات المحتملة للتصورات على الوجود, ومن ثم يكون هناك تعدد في المعاني والتصورات وكلما أتسع نطاق التصورات تحررت من قيود الحالات الخاصة, وأمكن أن تنسب الى قدر أعظم من العلوم لمعنى اللفظ, وهنا نلاحظ أن نظرية بيرس تعارض أي تحديد لمعنى التصورات بأداء غرض خاص أو عرض تشخيصي, كما تعارض فكرة أخضاع الفكر لخدمة أي نفع مادي أو مصلحة محددة [3].

برجماتية جيمس:

لقد واصل جيمس ما بدأه بيرس غير أن جيمس ضيق المنهج البرجماتي من وجهة ووسعه من أخرى, فقد وسعه بأن جعل تطبيقه على النتائج الخاصة في المستقبل, وضيقه من جهة تحديد المبدأ العام, لقد بدأ جيمس الحركة البرجماتية في خطاب له

1 المصدر السابق ص 83.
2 الاهواني, أحمد فؤاد(فلسفة جون ديوي) ص 85.
3 المصدر السابق ص 86.

بعنوان(التصورات الفلسفية والنتائج العملية) وأول ملاحظات بيرس النفسانية في أن الاعتقادات هي حقاً قواعد العمل, وليست وظيفة التفكير الاخطوة واحدة من أنتاج عادات السلوك, وأن كل فكرة نكونها عن أنفسنا عن شيء ما أما هي في الحقيقة فكرة عن الاثار المحتملة لهذا الشيء. وهنا يقول جيمس(أن الامتحان النهائي عندنا لمعنى الحق هو في الحقيقة ما يمليه أو يلهمه من سلوك, وأنما يفهم ذلك السلوك لآنه ينبيء أولآ عن أتجاه معين لخبرتنا يتطلب بالضبط ذلك السلوك منا, والقول عن مبدأ بيرس بأن المعنى الفعال لآية قضية فلسفية يمكن أن يخضع دائماً لنتيجة معينة في خبرتنا العملية المستقبلة)[1].

أذن فالقول عملي أو لفظ عملي(practical) أنما يعني النتائج المحسوسة الفردية الخاصة الفعالة في مقابل المجردة العامة الساكنة.

لقد كانت عناية جيمس الاولى بمعنى الحق(meaning of truth) فما دام الحق حد وله معنى تبعاً لذلك فهو تطبيق مشروع للمنهج البرجماتي وهذا المنهج أنما يخدم الحق, بأن يوضح معناه دون أن يشتغل بالنظر في الصدق أو صدق الاحكام المترتبة, والسبب الذي طرأ بجيمس الى أن يضع المنهج البرجماتي بهذا اللون الجديد هو الاشتغال بتطبيق المنهج على المشكلات الفلسفية وخاصة المسائل الدينية.[2]

لقد كان بيرس منطقياً قبل كل شيء, أما جيمس فقد كان مربياً وأنسانياً أراد أن يدفع الناس الى أن يتحققوا من بعض المشكلات والمنازعات الفلسفية, أن الفلسفة في نظر جيمس, يجب أن تبحث عن التأثيرات البارزة التي تخضع لها أنا وأنت في وقت معين من حياتنا, أذا كانت أحدى النظريتين عن العالم صحيحة(الوحدة والكثرة) ففي محاضرته في عام 1907 عن البرجماتية, طبق جيمس هذا النقد على المشكلى الفلسفية الخاصة بالواحد والكثير, وعلى مشكلات أخرى فالواحدية(monism) تساوي عالماً جامداً كل شيء فيه ثابت, مرتبط بغيره من الاشياء دون تغير, ولاموضع فيه للامكان وحرية الاختيار والتجديد فهو عالم يتطلب التضحية بالأشياء المتعددة المحسوسة في سبيل بناء هندسي بسيط, أما فيما يخص العقائد فالواحدية تتطلب مزاجا عقليا يفضي الى نزعة دجماطيقية جامدة, أما مذهب الكثرة(pluralism) فأنه يفسح المجال للتجارب للحرية للتحديد, ويعطي كامل الحرية في العمل للمنهج التجريبي, وقد يقبل هذا المنهج الوحدة أذا وجدها أمامه ولكنه لا يحاول أخضاع تعدد الحوادث والاشياء لكيان عقلي واحد.

أما وجهة نظر بيرس فهي أن نضع معاني العالم في صيغ تتفق مع ميولنا ومع عاداتنا وأستجابتنا الى البيئة, أذن يجب تحديد معاني المادة والله قبل محاولة فهم قيمة معتقداتنا في هذين التصورين, منهنا نقول أن بيرس منطقي, في حين أن جيمس أنساني.[3]

وعندما قدم جيمس(أرادة الاعتقاد) أو(الحق في الاعتقاد) كما قال فيما بعد فالكشف عن اعتقاد ما له أثر في الاعتقاد نفسه, فالشخص الذي يجد لذة في التجديد والمغامرة وتعدد المظاهر الجمالية سيطرح أي اعتقاد في الواحدية, أما أذا أعتقد في الانسجام الجمالي والتناسب الكلاسيكي والاين الثابت والتماثل المنطقي فأنه يؤمن بالواحدية, وعلينا أن نعترف بالدوافع التي تلهمنا وعلينا من خلالها أن نخدم الفلسفة والمشكلات الفلسفية وبخاصة الدينية منها, فهي ليست من الوضوح بحيث تجعلنا نقبل هذا الرأي أو ذاك, فأذن نحن عندما نعترف بقلة الادلة أو نقصها فمن حق المرء اختيار معتقداته, ومن حقه اختيار أيمانه بل أن أنكار نفسه اختيارا[4].

واذا أردنا أن نصل الى البرجماتية وجوهرها عند جيمس وهي(طبيعة الحق nature of the truth) والتي تتلخص في العبارة المشهورة(أن نتدبر الاشياء والمبادئ والمقولات والضروريات المرغوبة الاولى, وأن نتقبل الاشياء والثمرات والنتائج والوقائع الاخيرة).[5]

واذا طبقنا هذا المبدأ البرجماتي على(الحق) في العلوم الطبيعية, نجدها تميل الى التوحيد بين صدق حالة خاصة وبين التحقيق (verification) وتحقيق نظرية أو تصور يقوم على ملاحظة وقائع خاصة وأكثر النظريات تناسقا أنما هي مجرد(فروض) الى أن

1 وليم جيمس(البرجماتية) ص 22.
2 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) ص 87.
3 المصدر السابق ص 88.
4 المصدر السابق ص 89.
5 وليم جيمس(البرجماتية) ص 74.

تتحقق نتائجها بالبرهان الرياضي, أو بأية وسيلة أخرى من وسائل الاستنباط من وقائع الملاحظة, وفي أخضعا التصورات لضبط التجربة, أي في عملية التحقيق أي أن التحقيق هو الذي يعد من الحق من هنا يمكن القول أن البرجماتية امتداد للتجريبية القديمة مع فارق هو أننا نعتمد على الظواهر اللاحقة لا السابقة في أمكانية العمل.[1]

أن الافكار العامة في البرجماتية لها دور أكثر من مجرد تخيل أو تلخيص الخبرات السابقة, أنها أساسا تنظم المستقبل فيما يحصل بالملاحظة والتجربة, لقد كان العقل في التجريبية القديمة يلخص الحالات العامة, أما في البرجماتية فللعقل وظيفة بناءة أذ ليس المستقبل لفظة جوفاء, وليست النظريات مجرد أفكار عامة بل للافكار العقلية نتائج متصلة بالسلوك.

لقد كان لفلسفة جيمس بعض النتائج الميتافيزيقية المترتبة ومن ضمنها, أن نظريته كانت تدعو الى(عالم من التكوين) أو من الصيرورة, أو هو لم يكتمل بعد لآن مذهب قيمة النتائج يفض الى وضع المستقبل بعين الاعتبار وعندما ننظر الى المستقبل هذه النظرة تجعلنا نتصور أن العالم تطوره لم ينتهي.

والنتيجة الاخرى المترتبة عليه أن للعقل وظيفة خالقة بناءة ونحن حين نكون الافكار العامة ونضعها موضع العمل تخرج لنا نتائج ما كانت لها أن تحوره على نحو أخر, ولكان العالم مختلفا عما هو عليه لولا تدخل هذه الافكار, ومن هنا كانت أهمية العقل عند البرجماتية تتجلى ليس فقط في تحقيق الجانب النفعي فقط والمادي بل أنه أداة أو وسيلة فعالة في تحقيق التقدم أو الابتكار بالإضافة الى تشكل العالم وجعله معقولا وتهبه قيمة ملازمة له.[2]

الاداتية ومفهومها: instrumentalis

لقد نشأت بذور الاداتية عند جيمس لآنه كان يعد التصورات والنظريات مجرد أدوات يمكن أن تصلح من تكوين حقائق مستقبلة بطريقة خاصة غير أن قصر نظرة على المظاهر الاخلاقية لهذه النظرية التي كانت تؤكد على مذهب التفاؤل الاخلاقي, وماترتب عليه من أثار تختص بقيمة الحياة العاطفية, ومنزلة النظم الفلسفية وخاصة الطعن بالعقلية الواحدية والمذهب المطلق بجميع صوره, وهو لم يحاول قط أن يقيم النظرية كاملة عن صورة العمليات المنطقية ومن هنا كانت بدايات(الاداتية) عند ديوي فهي محاولة لوضع نظرية منطقية دقيقة عن التصورات والاحكام والاستدلالات في شتى صورها, وبالنظر قبل كل شيء الى التفكير كيف يعمل في تجديد النتائج المستقبلة تحديداً تجريبياً, وبعبارة أخرى تحاول الاداتية أن تضع القواعد المنطقية يعترف بها العامة عن طريق أستخلاصها من وظيفة العمل المتوسطة والمبدعة التي تنسب أليه, والغرض من الاداتية تكوين نظرية عن الصور العامة للتصور والاستدلال.[3]

وهنالك مجموعة من العوامل التي أدت الى التحقيق المتصل بالاداتية من ضمنها التحقيق التجريبي خاصة مايتعلق بالاصول التأريخية عندها (1) سيكولوجي (2) النقدي لنظرية المعرفة والمنطق الذي ساد في المدرسة بعد الكانطية.

فالاثر السيكولوجي يتجلى في طبيعته البايولوجية ويتعلق بمذهب واطسن في السلوكية, فالمخ عضو تنسيق المؤثرات الحسية في سبيل أحداث أنتخابات ملائمة, وتذهب نظرية التطور العضوية الى أن تحليل العقل وعملياته متفق مع الحقائق البيولوجية المعروفة, فالجهاز العصبي المركزي يشغل مكاناً متوسطاً يلائم بين حاجات الكائن الحي وبيئته, لقد أعلن الاداتيون أعتقادهم في أتحاد مبادىء المنطق المعيارية مع عمليات التفكير الحقيقية القائمة على علم النفس البيولوجي لاعلى علم نفس تأملي قائم على الحالات الشعورية, وأهم ماأهتم به جيمس في علم النفس هما: (1) نظرية في أتصال الحالات الشعورية أو مايسميه(مجرى الشعور).(2) أثبات وجود العقل في شتى أفعاله من أنتباه وتمييز وموازنة وتصور وتضييق وغير ذلك, عن طريق سعي المرء وراء تحقيق الغايات وفي ذلك يقول(أن تتبع غايات مستقلة وأختيار الوسائل لبلوغها, معيار على قيام حالة عقلية من الظاهرة).[4]

1 الاهواني(أحمد فؤاد)(فلسفة جون ديوي) ص 89.
2 المصدر السابق ص 90.
3 المصدر السابق ص 91.
4 المصدر السابق ص 92.

ويذهب جيمس فيما يخص طبيعة الحقائق الضرورية والدور الذي تلعبه الخبرة, الى أن الادراك الحسي والعقلي للعالم المحسوس ليس مجرد تجمع لخبرات خاصة وأنما هو عمل بيولوجي أصيل, وأن العدد والزمان والمكان والتشابه وغير ذلك من المقولات ظهر نتيجة لعدم أستقرار(المخ), ولايمكن أن تطبع على العقل بتأثير خارجي, وأنما تجمعت هذه المقولات وأمتد أثرها لما لها من قيمة عند نطبيقها على الحالات المحسوسة والاشياء الموجودة في التجربة فهي أذن ليست أصل التصورات بل تطبيق هذه المقولات هو الذي يصبح معياراً لقيمة التصورات, وفي هذا يكمن أصل البرجماتية.[1]

أن الاداتية تجعل التفكير وظيفة وضعية وهي أعادة تكوين الحالة الراهنة للاشياء لامجرد معرفتها أو أتخاذ نسخة منها, فالتفكير واسطة لآستجابات معقدة مع مؤثرات البيئة, وأذا طبقنا هذه النظرية البيولوجية على الاحكام المنطقية كان الموضوع هو جزء البيئة الذي يتطلب الاستجابة أو العادة أو الهيئة المحتملة التي لابد للمرء أن يسلكها بأزاء البيئة, والرابطة أو الفعل العضوي المحسوس الذي يتم به الربط بين الواقعة ودلالتها, وأخيراً نجد نتيجة أو موضوع الحكم هو تعديل الموقف أن في الموضوع أو المحمول أي البيئة.

من هنا كانت الاداتية تركز على أن العمل يجب أن يكون بعيداً وصادراً عن تدبر, وأن الفكر يجب أن يشغل منزلة رئيسية في الحياة وهذا هو السر في ألحاح الامريكان على عاقبة الفكر والمعرفة وهي غائية يجب أن تتحقق في الامور الخاصة لاعلة وجه مجرد, وأن يكون العقل الاخير(intelligence) هو المصدر دون غيره والضمان الوحيد لمستقبل سعيد. [2]

والبرجماتية(أو الاداتية التجريبية) بوجه خاص تبرز أهمية الفرد وتضعه في الاعتبار الاول, فالفرد حامل الفكر المبدع, ومانع العمل صاحب تطبيقه, ومن هنا نشأت الفردية في أوربا, ولكن الفلسفة الامريكية جعلت للفرد وظيفة عملية أكثر منها أبستمولوجية فالعقل الفردي مهم لآنه أداة التعديلات في التقاليد والنظم وهو السبيل الى الابداع, وليس للفرد في أمريكا هو الفرد في ذاته(المنعزل) بل هو الذي ينشأ ويعيش في بيئة أنسانية ويمكن تربيته.

نقد ديوي للبرجماتية:

لقد قام نقد ديوي للبرجماتية على أساسين:(1) الاول أن المنهج البرجماتي هو المنهج العلمي التجريبي.(2) والثاني أن نظرية الحق لم يتميز فيها فكرة المعنى والعمل ويتفرع عن ذلك, رفض مذهب التعدد الذي كان يدافع عنه جيمس.

ولأخلاف أن البرجماتية هي قبل كل شيء منهج وأتجاه ولكنها ليست بهذا العموم الذي ذهب أليه جيمس: من أنها أسترداد للمبادىء الاولى واستقبال للنتائج الاخيرة بل هي منهج محدد, أنها المنهج الذي ينظر الى التصورات والنظريات والافكار على أنها فروض توجهنا نحو أجراء تجارب معينة وملاحظات تجريبية, وأحس بيرس حين عرف البرجماتية(بأنها عادة الذهن المكتسبة من العمل, وهي لاتقتصر على ميدان العلوم الطبيعية فقط بل تمتد الى العلوم الانسانية كالتأريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع, وأن الجديد الذي يطالب به ديوي هو تطبيق المنهج التجريبي هو تطبيق المنهج التجريبي على العلوم الانسانية وأن تكون الخبرة الانسانية هي(السلطة) الاخيرة التي يعتمد عليها في الفلسفة.[3]

لقد طبق بيرس المنهج سائراً في الطريق الصحيح أي بتعريف(الاشياء) وبيان صدق الافكار ومعرفة مايقبله الناس ويسلمون به من(معتقدات).

أن وظيفة الفلسفة في نظر جيمس هي معرفة الفرق بين الاعتقاد في صيغة معينة عن العالم وبين صيغة أخرى وأثر ذلك في حياة كل منا, فصيغة العالم مفروضة من قبل وليس علينا الاعتقاد فيها, أما وجهة نظر ديوي فأن وظيفة الفلسفة ليست في معرفة الفرق بين صيغة وأخرى عن العالم بل(في الوصول الى معناها وتوضيحه ليكون خطة للسلوك نحو تغيير العالم الموجود).[4]

1 المصدر السابق ص 92.
2 المصدر السابق ص 93.
3 المصدر السابق ص 97.
4 المصدر السابق ص 98.

وأذا أخذنا مثالآ(وهو وجود أو عدم وجود تدبير في العالم فالفلسفة المتوازنة تقول(قوة بعبدة تسير الاشياء) وطبقأ لبرجماتية جيمس أذا كانت القوة المسشير للاشياء بصيرة لاعمياء فلنا أن نتوقع نتائج أفضل, وهذه الثقة الغامضة في المستقبل هي المعنى البرجماتي الوحيد الذي يمكن تمييزه لآصطلاحات(التدبير المدبر), وهذا المعنى الاخير أما أن يصفه تديلآ في المعنى الاول, وهو القوة البصيرة المسيرة للاشياء أما أنه يضيف قيمة برجماتية لفكرة القوة البصيرة, أو أن الاعتقاد في القوة البصيرة له قيمة بصرف النظر عن وجود هذه القوة, والتفسير الاول هو التفسير الاليق بالتفاسير البرجماتية فيما يرى ديوي, أي تحديد المعاني وتمييزها ولكن جيمس لايفعل ذلك بل يأخذ المعاني الموجودة من قبل وترتب عليها السلوك ويقول(أن الفكرة عن الله تضمن نظاماً مثالياً يظل محفوظاً أبد الدهر).[1]

الاداتية منهج تفكير:

لقد كان تأكيد ديوي الاساسي من أن الافكار تصبح حقأ بمقدار ماتعيننا على الظفر بعلاقات مرضية(satisfactiory) مع أجزاء أخرى من الخبرة, ولكن ديوي نقد جيمس في فهم هذه النظرية على هذا النحو في ربط الحق بالنجاح والارضاء.

وعندما وضع ديوي منهجه في التفكير في أتخاذ المنطق أداة التفكير, وأن في العقل صوراً أولية للتفكير(فالقول أن التفكير أداة بلوغ الحق, وأن هذه الاداة مشكلة من نفس الموضوع الذي تطبق عليه وهو عودة الى التراث الارسطي في المنطق).[2]

أن أستخدام العلوم الحديثة وتقدمها وماصاحب ذلك من منهج تجريبي, قد أستخدم منهج جديد يتلآم مع ذلك التقدم الحاصل في العلوم وهو أداة مختلفة عن أورجانون أرسطو, فلقد رد ديوي منهجه الى أرسطو, مع تسميته له بأسم(الاداة) وفيه أشارة الى ما فعله بيكن حين سمى منهجه(الارجانون الجديد) فلقد صرح بأعجابه بمنهج بيكن, فقد صرح بأن بيكن وضع الاساس للمنهج التجريبي الذي سارت عليه العلوم, فأن ديوي قد وضع هذا المنهج التجريبي للسير عليه في العلوم الانسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية, ومن هنا فالاداتية منهج يلائم القرن العشرين, ولكي تفهم الاداتية يجب أن تفهم طبيعة التفكير.[3]

أن العيب في الفلسفة القديمة أنها فصلت التفكير عن تيارات الخبرة الانسانية والنظر أليه على أنه عملية ثابتة أو لقطة من صورة فوتوغرافية فأنتزعت التفكير من مجرى(الحياة) وأنتزعت منه صفة الجوهرية لكل كائن حي هي أنه يعين في زمان, وسميت أوجه التفكير بأسماء عديدة مثل (التصور, الحكم, الاستدلال, التأمل) وهذه الاوجه تدل على بحث أو نتيجة بحث والبحث يشغل منزلة متوسطة في الخبرة, فمصطلحات مثل(البحث, الخبرة, التفكير, الزمان, الاتصال, السياق) هي مفاتيح لاغنى عنها لمعرفة وفهم ديوي ومنهجه فالانسان باحث بالطبع وهو دائب عليه والاداة التي يستخدمها الانسان في البحث هي التفكير, وهذا التفكير ينتقل من خبرة ألى أخرى أنتقالآ متواصلاً لاأنقطاع فيه, كما يتشكل التفكير بمقتضى السياق على مجرى الاحوال, أو بمعنى أخر أن التفكير يتدخل فيه الخبر والاتصال والسياق من هنا كانت تسمية مذهبه بأسم هذه العمليات مثل التجريبية نسبة الى الخبرة, والسياقية نسبة الى السياق, ومذهب العمليات العقلية نسبة الى أتصال عمليات التفكير داخل الخبرة, وهي كلها أدوات البحث والسلوك في الحياة ومن ثم سمي مذهبه بالاداتية.[4]

أن النظرية التي يدافع عنها ديوي هي وجوب أعتبار الذات والموضوع متصلين وأن الانفصال بين الشخص المفكر وبين الموضوع الفكر أنفصالآتاماً هو من نوع الثنائيات التي صنعها الفلاسفة وليس لها وجود في الواقع, أذن من الخطأ أن نعزل الامور خارج الخبرة أو أن نجعلها موضوعات للمعرفة والطريق الصحيح لمعرفتها هو أن ندرسها من حالة وجودها داخل الخبرة وأما في حالة التفكير التأملي فهو تفكير بكل معنى الكلمة ويظهر حين لاتجري الامور حسب المألوف بل حين يقع الانسان في ضيق وحين يشعر بالحرج وحين تبرز أمامه عدة طرق يحتار في أي من تلك الطرق يسلك, أذن لابد أن يتعلق التفكير بموقف معين محسوس, وأن تكون له غاية يريد بلوغها ووظيفة يؤديها وهي حل المشكلة, أذن فالتفكير هو(أداة) في التحكم في ذلك الموقف المضطرب المعقد, لقد وهبتنا

1 وليم جيمس(البرجماتية), ص 136.
2 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) ص 101.
33 المصدر السابق ص 101.
4 المصدر السابق ص 103.

الطبيعة التفكير ليكون أداة من نوع أخر نستعملها في تناول أمور من نوع أخر وهذه هي الامور المعقدة وهي تحتاج منا الى حل, وذلك يكون بالاستدلال وتحديد المعاني الدالة على الاشياء ومعرفة العلاقة بين الاشياء وربط الاسباب بالمسببات. [1]

لقد كان عيب الفلسفة القديمة هي أنها تجعل الاشياء الخارجية الواقعة في بناء التفكير مع أن العكس هو الصحيح, أي أن الاشياء الخارجية حقائق واقعة وهي أصل تفكيرنا فالمثالية تزعم وجود قوة عاقلة تريد أن تحقق ذاتها في داخل التجارب الانسانية, أما البرجماتية فأنها تجتهد للتخلص من بعض المأزق في الواقعة التي تهددنا, وذلك عن طريق التفكير الذي هو أداة للسيطرة على البيئة. [2]
أما فيما يتعلق بسمات ذلك التفكير الاداتي فهو يتميز بسمتين أساسيتين هما:(1) أنه يعرف التفكير بالوظيفة وبالعمل الذي يؤدي والنتائج التي تترتب عليه.(2) أن التعديل أو التنظيم الجديد الذي يتم بهذا التفكير أنما هو شيء طبيعي لآن التفكير ينتهي في الخبرة التي هي تعديل واقعي لموقف طبيعي سابق.

من هنا فالتصورات والمعاني العقلية(علامات) ووسائل لمعرفة الموقف وتعديله, ولما كانت أعتيادنا على التفكير بالالفاظ وما تحمل من معنى, فالمعاني لها منزلة عظيمة في التفكير ولكنها على طريقة ديوي أدوات كثيرة كذلك لبلوغ غاية نريدها. [3]

البحث المنطقي للمنهج العلمي:

يرى ديوي أن الوصول الى حكم منطقي يتطلب منا أجرارات من جانبي المشاهدة الخارجية والافكار الداخلية في وقت واحد(أي الجانب العقلي والتجريبي) ولكي نتمسك بضوابط البحث العلمي لابد أن يكون(في أذهاننا أفكار وفروض قد لايربطها رابط بالمادة المحصلة بالمشاهدة الخارجية تنمو خلالها الافكار نموأ تستقل بها وحدها خاصة في البحث العلمي والغرض هو الحصول على أفضل المعاني ملازمة لآستحداث وتوفية أجراءات المشاهدة الخارجية والتي تنتج تلك الوقائع الوجودية وحدها من دون غيرها والتي توصلنا لحل الموقف أو المشكلة). [4]

فلا يمكنالاستغناء عن أي من الجانبين خلال عملية البحث العلمي الصحيح وهذه تكون بخطوات من الاحكام الجزئية يسميها ديوي(ترجيحات أو رأياً أو تقديرات) يحدث خلال مسيرة البحث, فهنالك رابط أداتي بين بين الجانبين منفصلان ومتصلان معأ, وبالتالي فالمادة العلمية تتكون من:

(1) جانب مادي(قضايا الوجود الخارجي)

(2) جانب أجرائي(قضايا خاصة بالمعاني وما بينهما من علاقات). [5]

وهكذا نجد المنهج العلمي الديوي هو(أن تتحقق الشروط المنطقية التي يفرضها توجهنا للبحث تحققاً كافياً) [6]. وهذا لا يكون الامن خلال المقابلة الادائية بين جانبي الاستنباط والاستقراء في المنهج العلمي.

ولعمل هذه الاجراء ات الاستقرائية تهيء مادة تكون لها وزن من حيث الاقناع بأعتبارها شواهد نستشهد بها على صدق تعميم ما أنتهينا أليه بعملية الاستدلال, فدور الاستقراء في عملية البحث برزت من خلال تحويل مادة الادراك الحسي التي تلقيناها بادء ذي بدء تحويلاً يجعلها مادة معدة للبحث, حتى أذا ما أعدت المادة أعداداً يحقق الشروط المذكورة كانت مهمة الاستقراء قد أنتهت, وبالتالي نكون قد وصلنا الى التعميم بحكم الامر الواقع, ولابد للعمليات التي تعد لنا المواد أعداداً سوياً من توجيه من قبل مدركات عقلية بحيث لابد من صياغة هذه المدركات العقلية صياغة تجعلها بمثابة الفروض, وبعملية التفكير عن طريق خطوات أستنباطية تسير بها من تفكير نظري مرئي, وهنا نحصل على تخمين أو رأي يوصلنا الى مشاهدة بعض الظواهر من دون بعضها الاخر, وهذه توحي لنا

1 المصدر السابق ص 104.
2 Deway: anessey on experimenta l logic p: 30
3 الاهواني, أحمد فؤاد(جون ديوي) ص 103.
4 ديوي, جون(المنطق نظرية للبحث) ترجمة: زكي نجيب محمود, الناشر: دار المعارف بمصر, مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر, القاهرة, ط2, 1969 وص 242.
5 المصدر السابق ص 711.
6 ديوي, جون(المنطق نظرية للبحث) ص 677.

بأيحاءات تأخذ بزمام مشاهدات تجريبية, وهنا يكون تطوير المدرك العقلي الذي يرشدنا الى توجيه مشاهداتنا, وهو الذي يزودنا بالمادة الوحيدة الممكنة للتحقق بالتجربة والتي نستعين بها على رؤية الجانب الاستنباطي والاستقرائي في المنهج العلمي, وبالامكان الان أن نقف عند أهم أدوات المنهج وهي التجربة فهي عند ديوي(جانب من جوانب المنهج يعبر تعبيراً صريحاً عن كون البحث يستحدث تحولاً وجودياً من حيث مادة الوجود الخارجي التي كانت باعثاً على القيام بذلك البحث). [1]

أن المهمة التي تؤديها التجربة في عملية البحث ضرورية لآنها تحول الموقف المشكل تحولاً لتجعله موقفاً, محلول الاشكال, فهي مطلوبة لآيجاد المعطيات التي بواسطتها نستدل على القضايا المقبولة وهذا الاستدلال مطلوب لتحديد ووصف المشكلة وهو ما تمتاز به المادة العلمية. ومن ناحية أخرى تعتبر التصورات العقلية وسائل أجرائية ترسم لنا خطة العمليات التي تخرجها حين نجري تجاربنا العلمية. [2]

فلابد لمعطيات الواقع أن تستثير في الذهن ما يقابلها من أفكار نظرية ثم نختبر هذه الافكار على أنها فروض يكون من شأنها أن توجه خطة العمليات الاجرائية التي نحدد بها الواقائع على وجه تحليلي تركيبي والتي يعدها ديوي الشروط المنطقية للبحث العلمي.

وعلى هذا الاساس يأتي رفض البرجماتية وجهات النظر التي تنظر الى الامور من جانب واحد سواء تلك التي تعتبر الواقع مدارها الوحيد(الوضعية والتجريبية) أو المدرسة التي تجعل الافكار اعقلية مدارها الوحيد بحيث تجعل المادة الفكرية حقائق أو مبادىء أو معايير أولى لاسبيل الى تفسيرها وتحكم بنفسها على صدق نفسها, لقد وجدت البرجماتية بدلاً من ذلك الطريق الواصل الى الحقيقة, لآن البحث الصوري والتعاون هو الذي يعمل بالملاحظة على صدق نفسها وأدوات البحث والتسجيل والرصد والتأمل الخاضع لآحكام الضبط والدقة. [3]

(الخاتمة... ونتائج البحث)

(1) لم يكن ديوي صاحب مذهب مغلق بقدر ما كان صاحب منهج مفتوح في الافاق, وشق الطريق في عالم التغير.

(2) ترجع خصوبة فلسفته الى محاولة أستخلاص تلك الحقيقة من براثن هذا التغير الدائم والجريان النتصل وقديماً وصف هرقليطس بأنه الغامض لآنه فهم حقيقة العالم أنها التغير المتصل.

(3) لقد أنطلق فيلسوف الثقافة من ضرورة أقرار الحرية مبيناً منزلة الحرية من الحضارة.

(4) لقد أكد على ضرورة توطين التجريب في مجال العلوم الانسانية لذلك أكد على أهمية توطين التجريب في مجال العلوم الانسانية, وكذلك أكد على ضرورة وأهمية أظهار هذا المظهر في علوم مثل التأريخ والاقتصاد والسياسة وغيرها بأعتبارها علوم تطمح الى أن تصبح علمية.

(5) تجمع الفرد في نفسه جوانب أخرى لاتقل أهمية عن الجانب الاخلاقي منها النزعة الدينية والاخلاقية وهما نزعتان يمكن النظر أليهما على أنهما جانبان من(الخبرة) أو من زاوية الحضارة.

(6) ينبغي أن يكون مفهوماً أن ديوي لا يفصل في الفرد أي نشاط من ألوان النشاطات السابقة, فهو واحدي في مذهبه وهو الذي ينادي بأن الانسان كائن طبيعي لايمتاز عن أي كائن أخر الابوجود وظائف زودته بها الطبيعة وعليه أن يفسح المجال لتأملية عملها وعلى رأسها الخيال والعقل.

(7) لقد أولى الناحية الدينية أهتماماً خاصاً, فقد كان يؤمن بالمذهب الطبيعي وفي الانسانية فقد كان ديوي أنسانياً بكل معنى الكلمة.

1 جون ديوي(المنطق نظرية للبحث). ص 967.
2 المصدر السابق ص 710.
3 رالف, ن, أوين(قاموس ديوي للتربية) مختارات من مؤلفاته, ترجمة محمد علي العريان, مكتبة الانجلو مصرية, مؤسسة فرانكلين, القاهرة, نيويورك, 1964, ص 91.

(8) أما من الناحية الاخلاقية فقد كانت دعوته الاساسية هي أننا نعيش في عالم متغير ومتبدل, لاتتلآم معه العادات الحاضرة مهما تغيرت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية, فلم يعد يصلح أن يفكر المرء في ضوء العادات المتوارثة والعرف السائد بل لابد أن يستخدم الانسان تفكيره في أجراء التطور والتقدم والتحسين والنمو.

مصادر ومراجع البحث:

(1) زكي نجيب محمود(حياة الفكر في العالم الجديد)، دار الشروق للنشر, بيروت, لبنان, ط 3,. 1987.

(2) أحمد فؤاد الاهواني(جون ديوي)، دار المعارف, القاهرة, 1959, ط3, 1987.

(3) برتراند رسل(تأريخ الفلسفة الغربية)، ج1، ترجمة: زكي نجيب محمود, الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب, مصر, 2010,ط1

(4) د, صلاح قنصوة(نظرية القيم في الفكر المعاصر)، دار التنوير للطباعة والنشر, بيروت, لبنان, ط1, 2010

(5) جون ديوي(الحرية والثقافة) 1939

(6) ديوي، الموسوعة الفلسفية

(7) جون ديوي(البحث عن اليقين)، ترجمة: أحمد فؤاد الاهواني, الناشر: دار أحياء الكتب العربية, القاهرة, ط1, 1960.

(8) جورج طرابيشي(معجم الفلاسفة)، دار الطليعة بيروت, ط1, 1987.

(9) جون ديوي(الفردية قديمأ وحديثأ)، ترجمة: خيري حماد, مراجعة: مروان الجابري, مكتبة دار الحياة, بيروت, 1969, ط1.

((10stronth, cy(amercain philosophy) 1969

(11) جون ديوي(أعادة البناء في الفلسفة)، ترجمة: أحمد الانصاري, مراجعة: د, حسن حنفي, المركز القومي للترجمة, ط1, 2010.

(12) جون ديوي:(الخبرة والتربية)، ترجمة: محمد رفعت رمضان, الناشر: وكتبة الانجلو مصرية, القاهرة, مصر, د. ت.

(13) جون ديوي:(التجديد في الفلسفة)

(14) جون ديوي(البرجماتية والثقافة الامريكية) ضمن نشرة عقيدتي.

((15dewey: anesseay on experemential(layer)

(16) جون ديوي(المنطق نظرية للبحث)، ترجمة: زكي نجيب محمود, الناشر: دار المعارف, مصر, القاهرة, ط2, 1969.

(17) رالف, ن, وين(قاموس ديوي للتربية)، ترجمة: محمد علي العريان, مكتبة الانجلو مصرية, مؤسسة فرانكلين, القاهرة, نيويورك, 1964, ط1.

((18google(thomes): the thought of perice

((19deweey:(now we thing(hennery roger) company great way, edition chicego, usa 1971.

(20) تشارلز موريس(رواد الفلسفة الامريكية)، ترجمة: أبراهيم مصطفى, مؤسسة شباب الجامعة, الاسكندرية, 1996, ط1.

(21) جون ديوي:(نمو البلاغماتية): ضمن داجبورت دونز,(فلسفة القرن العشرين) ترجمة: عثمان نوية, مؤسسة سجل العرب, القاهرة, 1963.

(22) هربرت شنايدر:(تأريخ الفلسفة الامريكية) ترجمة: محمد فتحي الشنيطي مكتبة النهضة المصرية, 1964, ط 6.

(23) محمود فهمي زيدان:(وليم جيمس)، دار المعارف, القاهرة, ط1, 1958.

(24) عزمي أسلام(أتجاهات في الفلسفة المعاصرة)، شركة المطبوعات, الكويت, ط1, ب, ت.

(25) بيتر كان:(تأريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، ترجمة: حسين نصار, مكتبة الانجلو مصرية, 1980, ط 1.

(26) وليم جيمس: البرغماتية، ترجمة: محمد علي العريان, تقديم: زكي نجيب محمود, المركز القومي للترجمة, مصر, القاهرة, 2008, ط2.

(27) د حسام الالوسي:(الفلسفة الذرائعية) عرض ونقد، ندوة المجمع العلمي العراقي, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت، ط1, 1995.

(28) جون ديوي:(مقالة في منطق التجريب).

(24) جون ديوي: التجربة والطبيعة.

(25) فان وسب: الحكماء السبعة

(26): منتهى عبد جاسم: معيار الحكم والاخلاق في الفلسفة البرجماتية، دار التنوير للطباعة والنشر, ط1, 2010, بيروت.

(27) زكريا أبراهيم:(دراسات في الفلسفة المعاصرة).

(28) د, يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة, الكويت, 2000, ط1

(29) جون كميني:(الفيلسوف والعلم)

(30) يعقوب فام: البرجماتية.

(31) جون ديوي: المبادىء الاخلاقية في التربية.

(32) المسيري, عبد الوهاب: نيتشة فيلسوف العلمانية الاكبر كتاب أوراق فلسفية(الذكرى المئوية لوفاته), أحمد عبد الحليم عطية, القاهرة, 2000.

(33) جون ديوي(الطبيعة البشرية والسلوك الانساني.)

(34) جون ديوي:(مدارس المستقبل) ترجمة: عبد الفتاح المنياوي, مكتبة النهضة المصرية,القاهرة, ط1, 1962.

(35) جون ديوي: التربية والديمقراطية. دار المؤلف للترجمة والنشر, القاهرة, 1964.

(36) جون ديوي: المدرسة والمجتمع.

(37) جون ديوي: التربية في العصر الحديث.

(38) دافيد مارسيل:(فلسفة التقدم) ترجمة: خالد المنصوري، الانجلو مصرية, القاهرة, ط1, 1987.

(39) جون ديوي:(الحرية والثقافة).ترجمة: أمين مرسي قنديل، مكتبة الانجلو مصرية, القاهرة, 1955, ط1.